مقالة الابداع

هل الإبداع يعود إلى العامل النفسي أم الاجتماع

طرح المشكلة:

يعتبر الإبداع ظاهرة إنسانية فريدة ، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لديه القدرة على إنشاء صور إبداعية تتجاوز حدود الواقع ، بمعنى آخر هو الكائن الوحيد الذي يعيش المستقبل تخيلا ، والتخيل نوعان: تخيل تمثيلي ويتمثل في استحضار الصور الواقعية دون تحديد الملابسات الزمانية والمكانية ، وتخيل إبداعي والذي يعني تركيب حر للصور .والإبداع يعرف على أنه تركيب شيء على غير مثال سابق ، والذي يتجلى في جميع المجلات سواء كانت علمية أو فنية أو فلسفية أو تقنية.

ولقد سعى الفلاسفة والمفكرون في البحث عن الشروط والعوامل المتحكمة في الإ بداع وانتهى هذا البحث إلى اختلاف في الرؤى والمواقف فمنهم من يرى أن الشروط النفسية كافية لوحدها لوقوع الإبداع ومنهم من يرى أن البيئة الاجتماعية وليدة الإ بداع وفي حدود هذاالتناقض الفكري نتساءل : هل ظاهرة الإبداع ترتد إلى الشروط النفسية فقط؟ بمعنى شارح هل كل الأعمال الإبداعية تتوقف على ما يتميز به المبدع من خصال عقلية ونفسية أم على المجتمع وما يوفره من بيئة ومناخ ملائم؟ وفي عبارة واحدة ما هي شروط المتحكمة في العملية الإبداعية؟

محاولة حل المشكلة:

يرى العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس أن عملية الابداع ترتد إلى الشروط النفسية تتعلق بذاتية المبدع وتميزه عن عامة الناس كحدة الذكاء وقوة الذاكرة وسعة المخيلة والارادة والصبر اضافة الى الانفعالات المختلفة ، ومن يذهب إلى هذا الاعتقاد أو الوجهة من النظر الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون والعالم النفساني فرويد وآخرون ، والذين اعتمدوا على العديد من الحجج والمبررات من بينها:

لأن القدرات العقلية تأثير حاد في عملية الإبداع ذلك أن الإنسان المبدع يجب أن تتوفر فيه خصال عقلية مميزة فيجب أن يكون صاحب ذكاء خارق أي له القدرة على اكتشاف العلاقات الخفية التي تحكم الأشياء فالذكاء يعني سرعة الفهم والقدرة على حل المشكلات ، كما أنه يمكن الباحث من طرح المشكلات طرحا صحيحا وإجاد لها الحلول .كما أن العملية الإبداعية تحتاج إلى قوة المخيلة ، فكل ما كان الإنسان لديه سعة التخيل كل ما استطاع أن يتخيل حلول عديدة لمشكلاته ، حيث بمقدور المبدع أن يحول الصورة العقلية المجردة إلى شيء موجود فعلا كلوحة فنية أو قصيدة شعرية أو قصة أو رواية أدبية...

ويشترط الإبداع كذلك ذاكرة قوية ، لأن المبدع لا ينطلق من عدم ، بل يستند إلى معارف وخبرات سابقة التي يقتضي تذكرها ، وبالتالي تمثل الذاكرة المادة الخام و العناصر الأولية للإبداع.

كما لا ننسى قوة ودقة الملاحظة فلها أثر بالغ لأهمية في عمل إبداع فمثلا: عين الرسام ترى ما لا تراه عين الإنسان العادي.

ولو استقرأنا وتتبعنا حياة المبدعين في جميع الميادين ، يكشف أنهم يتميزون بقدرات عقلية نادرة هيأتهم لإدراك المشكلات وإجاد الحلول كما يتجلى في مختلف النظريات التي صاغها العلماء.

كما أن للجانب النفسي) الانفعالي (تأثير قوي في كل عملية إبداعية ، وهي تتمثل في ميل والرغبة والاهتمام ومختلف العواطف .فالأحوال الانفعالية مادة لكل عمل فني وأدبي ، وفي هذا السياق يقول ريبو: " إن كل عمل إبداعي يتضمن عناصر إبداعية " فمثلا عواطف المحبة الأخوية والحزن الشديد عند الخنساء فأبدعت في

شعر الرثاء ، كما أن أرخميدس اكتشف قنون السوائل وهو في حالة انفعالية عنيفة، يقول برغسون في هذا الصدد) إن الأثر العبقري يصدر من انفعال خلاق (ويقول أيضا) إن العظماء والقديسين والمبدعين لا يبدعون في حالة جمود الدم وإنما يبدعون في جو ديناميكي تتلاطم فيه الأفكار.(

كما يجب أن يكون المبدع صاحب إرادة قوية وصبر طويل لأن الاكتشاف والوصول إلى الابتكار لا يتم إلا بعد ساعات طويلة من الانتظار ، أي أن العملية الإبداعية مبنية على المعاناة الدائمة وفي هذا السياق يقول نيوتن: " العبقرية صبر طويل " بدليل فإن المخترع الأمريكي الشهير طوماس ايديسون قبل أن يخترع المصباح الكهربائي حاول أكثر من ألف محاولة ولكنه لم ييأس ولم يسميها تجارب فاشلة بل سماها محاولات لا تعمل وفي هذا الصدد يقول: " تعلمت ألف طريقة خاطئة لصنع المصباح " .

كذلك حلل فرويد ظاهرة الابداع بردها إلى الأعمال ألا الشعورية ، ذلك أن عمل المبدع في نظره تعبير عن الرغبات المكبوتة التي تتحقق عن طريق الخيال الذي يعتبر شكلا من أشكال الارضاء البديل وامتدادا للعب الأطفال وأحلام اليقظة عند الراشد ، لهذا فـ الدوافع المكبوتة تعتبر شرط الإبداع يقول فرويد) إن الليبيدو هو المنبع الخفي وراء كل إبداع.(

نقد ومناقشة

ومن خلال تحليلنا لهذا الموقف يتضح أن كل عمل إبداعي يرتد إلى الشروط النفسية.

إننا لا ننكر دور العوامل النفسية في عملية الإبداع لكنها في حاجة الى مناخ اجتماعي وحضاري يوفر للمبدع الشروط

الموضوعية التي تجعل من هذا الإبداع ممكنا وحقيقيا لأن التجربة الواقعية تبين أن هناك أفراد يمتلكون قدرات عقلية ونفسية نادرة ومع ذلك لا يبدعون لقلة في الا مكانيات ، مما أدى بهجرة الأدمغة من الدول الفقيرة التي لا توفر لمبدعيها ما يحتجونه إلى دول غنية ومتقدمة التي تقدر المبدع مقارنة بالأفراد العاديين مثل ما حدث مع العالم الفيزيائي المصري أحمد زويل حيث كانت كل إبداعاته في أمريكا وهذا يدل على أن العوامل الذاتية وحدها غير كافية في حدوث عملية الإبداع.

الموقف الثاني

ومن هذه ا لسلبيات ظهر موقف آخر ولذي تمثله المدرسة الاجتماعية بزعامة العالم الا جتماع الفرنسي إميل دوركايم حيث ترى أن الإبداع ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى فالبيئة الاجتماعية هي التي تعمل على توفير مختلف الشروط المادية والمعنوية للمبدع ، فالفرد دمية يحرك خيوطها المجتمع كما أن الوظائف العقلية من لغة وذاكرة وتخيل ...لا تنمو إلا في المجتمع .فالفرد حسب رأيهم هو صدى المجتمع لأنه لا يبدع من عدم بل يبدع من خلال ما هو معطى له فهو يتأثر بدرجة نمو المجتمع من جهة ، وبالمشكلات والمعناة الموجودة في وسطه الاجتماعي من جهة أخرى.

فالنظرية الاجتماعية تؤكد أن العملية الإبداعية ترتبط بحالة العلم والثقافة السائدة في البيئة الاجتماعية فالإبداع أو الاختراع لا يكون إلا إذا كانت حالة العلم تسمح بذلك كاختراع القنبلة الذرية نتيجة تطور علم الفيزياء والكيمياء والتقنية ونفس الأمر ينطبق على مختلف الاختراعات الأخرى كاختراع المصباح أو الطياران أو التلفاز كان من غير الممكن اكتشافها في القرن السابع او الثامن لأن مثل هذه الاختراعات تقوم على نظريات وقوانين فيزيائية لم تكن معروفة في ذلك الوقت وفي هذا السياق يقول الفيلسوف جاك بيكار: "الاختراع ينشأ وينمو بصفة جبرية تقريبا إذا كانت حالة العلم تسمح بذلك" ، كما أنه كل ما كانت البيئات الاجتماعية والثقافية متشابهة في درجة النمو والتقدم ، تؤدي إلى ظهور نفس الإبداعات وهذا ما يفسر تشابه الأعمال الإ بداعية في أروبا في القرن 18 حيث اكتشف العالم نيوتن الإنجليزي والعالم ليبنتز الأ لماني حساب اللانهايات في زمن واحد دون أن يطلع أحدهما على عمل الآخر.

ويرتبط الإبداع بالتشجيع وتقديم المكافآت التي تقدمها الدول لمبدعيها حيث يكثر الإ بداع في الدول التي تخصص ميزانيات ضخمة للبحث العلمي كاليابان والولايات الأ مريكية المتحدة ودول الاتحاد الأروبي.

إضافة إلى ذلك فالفرد حينما يبدع شيء فهو يبدعه نتيجة حاجة المجتمع او مشكلة موجودة في المجتمع وفي هذا يقول باستور " إن الأفكار الخصبة في الغالب هي بنات الحاجة " وكذلك قيل " إن الحاجة أم الاختراع " فكل العمليات الإبداعية التي أبدعها العلماء نتيجة متطلبات المجتمع كإبداع كارل ماركس لفكرة الاشتراكية كانت بمثابة حل لمشكلة الطبقة الاجتماعية مهضومة الحقوق وهي الطبقة العمالية التي كانت خاضعة لظلم واستغلال الرأسمالية ، واكتشاف العالم الفيزيائي تورشيلي لقانون الضغط الجوي جاء كحل لمشكلة زراعية واجتماعية طرحها سقاؤوا فلورنسا " مدينة

إطالية " عند تعذر ارتفاع الماء إلى أكثر من 10.33 م

وعليه يمكن القول أن الإبداع مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية.

نقد ومناقشة

رغم أهمية العوامل الاجتماعية في العملية الإبداعية إلا أن هذا الموقف وجهت له جملة من الانتقادات والاعتراضات لكونه ينطوي على نقائص وسلبيات من بينها :

فلو كان الإبداع يرجع دائما إلى الشروط الاجتماعية لوجدنا جميع أفراد المجتمع المتقدم أو المتطور مبدعون ، والتجربة الواقعية تكب ذلك فالمبدعون هم الخاصة من الناس الذين يمتلكون خصال عقلية ونفسية متميزة عن غيرهم .كما أن المجتمع في الكثير من الأحيان ما يقف عائقا أمام الإبداع وذلك تحت تأثير العادات والتقاليد الا جتماعية ، فالمجتمع يرفض كل ما هو جديد والوقائع التاريخية تثبت ذلك فغاليلي اكتشف دوران الأرض وبالتالي خالف الكنيسة التي كانت تؤمن بثباتها فحكم عليه بالإ عدام ، والأمر نفسه حدث مع ويليام هارفي الذي اكتشف الدورة الدموية غير أن فكرته رفضت من طرف المجتمع ، وكذلك عند الفنانين كثيرا ما لا تلقى إبداعاتهم أهمية عند المجتمع لأنها لا تتماشى مع أذواقهم وخير مثال نجده في شخص الفنان الهولندي الشهير فان غوغ الذي مات منتحرا لأنه لم يستطع أن يكسب رضا النقاد . زيادة على ذلك كثيرا ما نجد علماء أبدعوا في بيئات اجتماعية غير ملائمة كابن خلدون وبتهوفن.

التركيب

وهكذا وبعد الوقوف على نقائص وسلبيات الموقفين يمكن القول إن عملية الإبداع هي عملية معقدة تتداخل فيها العوالم الذاتية والموضوعية معا:

فيجب أن تتوفر في المبدع خصال عقلية ونفسية متميزة كالذكاء الحاد وقوة الذاكرة والإرادة ...ويعمل المجتمع على تنميتها وتطويرها وتوفير لها مختلف الشروط المادية والمعنوية وبالتالي هناك تكامل بين العوامل النفسية والاجتماعية.

وحسب اعتقادنا الخاص يمكن القول أن الإبداع يحتاج إلى العامل النفسي والعامل الا جتماعي على السواء ويمكن تشبيه عملية الإبداع بالبذرة فكل ما وضعت في تربة خصبة كان نموها جيد .

حل المشكلة:

على ضوء مما تقدم نستنتج أن ظاهرة الإبداع كظاهرة إنسانية هي محصلة لتفاعل وتكامل الشروط النفسية المتعلقة بذاتية المبدع والشروط الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع ، وبالتالي لا يمكن تفسير العملية الابداعية بردها إلى عامل واحد وفي هذا السياق يقول الفيلسوف ريبو : " مهما كان الابداع فردي فهو لا يخلو من نصيب اجتماعي